١كور ١، ١٠- ١٧

الأحد الــ ٨ بعد العنصرة

الــوحــدة
مــراهنة الحــريّة فـــي المــعرفة والمــحبّة

"أطلب إليكم... أن تقولوا قولاً واحداً وألاّ يكون بينكم شقاقات"

"بعد التماسنا الاتّحاد في الإيمان وشركة الروح القدس"، هكذا نصلّي قبيل لحظة المناولة المقدّسة. ما كان يميّز حياة الكنيسة في سنواتها الأولى في أورشليم أنّ "الجمهور الذين آمنوا كانوا قلباً واحداً ونفساً واحدة" (أع ٤، ٣٢). لهذا يستحلف بولس الرسول هنا أهل كورنثوس وإيّانا "باسم يسوع المسيح" أن نكون واحداً، فكراً وقلباً.

الوحدة والانشقاق هما أهمّ أمرٍ في مستقبل المسيرة التاريخيّة للكنيسة. لقد صلّى يسوع في تنهدّاته الوداعيّة (يوحنّا ١٧) خمس مرّات من أجل وحدة تلاميذه بعد مغادرته لهم: ليكونوا هم كما نحن، ليكونوا واحداً"!

لكن، ويا للأسف، ظهرت الألفيّة الأولى والثانية زمناً للشقاقات فحصل الانشقاق الأوّل في الشرق بين الخلقدونيّين وغير الخلقدونيّين في القرن الرابع! وحصل بعدها الانشقاق الكبير بين الشرق الغرب بين أرثوذكس وكاثوليك في القرن الحادي عشر، ثمّ لحق الانشقاق الثالث في الغرب بين كاثوليك وبروتستانت،... واليوم ترتفع الأصوات، وهي محقّة، نريد الألفيّة الثالثة ألفيّة إتّحاد بدل الشقاق.

لكن كيف تتمّ الوحدة، لا بل ما الذي يمنعها، لكي نرفعه ونتّحد؟ قد يظنّ البعض أنّ السبب الوحيد للشقاقات كان اختلافَ "العقائد"، ولكن الحقيقة تقول إنّ هناك سبباً ثانياً لا يقلّ أهميّة وهو الأصعب في التصحيح، وهو نقصُ المحبّة"! إنّ تصحيح الأفكار يتمّ بالحوار. لكن كيف يتمّ التعويض عن نقص المحبّة، إلاّ بالاحترام واللّقاء والصلاة معاً، وحقّاً؟!

الإنسان كائن حرّ في معتقداته وفي صداقاته، حرٌّ في اختيار وتشكيل معرفته، كما هو حرّ في إدخال الآخرين إلى قلبه أو إخراجهم منه. إذن، إنّ الوحدة المسيحيّة هي رهينة هذه الحريّة في المعرفة وفي المحبّة، في العقل وفي القلب على السواء.

المعرفة، مسألة أساسيّة في الحياة، وتكوّنها عوامل عديدة. والفرق بين "الأصوليّ" وبين "المؤمن الحرّ" هو غياب أو حضور الحريّة في تطوير معارفه أيّة لحظة. هل أنت حرّ أن تبدل معتقداتك حين تراها خاطئة أم أنت أسير أفكارك، تطلق عليها صفة المطلق، هذا ما يحدّد تصنيفك بين "أصوليّ" أو "مؤمن" حرّ حقيقيّ! أَنؤمن بمعتقداتنا أم بيسوع؟ المعتقد يأخذنا إلى يسوع، فإذا ما رأيناه شائباً عندما نقترب من المسيح، علينا أن نكون أحراراً في تعديله. وحريّة المعرفة لا تعني أبداً الإباحيّة في اختيار مصادرها! فنحن لا نخترع إيماننا بل نكتشفه أكثر. ما يجب أن يزيد في إيماننا هو أن نفهمه "أكثر" وليس أن نجعله "آخر"؛ يسوع هو هو إلى الأبد". لذلك عندما نكون أحراراً مبدِعين لا يعني أن نصير "متحرّرين من التقليد وأصحاب بدع".

حريّة المعرفة، بين الصالح والخاطئ، تمتدّ على الزمن في ماضيه ومستقبله. نحن أحرار أن نكون أمينين للتقليد أو أصحاب بدع. ونحن أحرار في تطوير التقليد ذاته أو تصنيمه. إنّ هذَين الطرفَين هما السبب في الشقاقات الكنسيّة. فاختلاف الأمانة للتقليد خلق الشقاق بين الأرثوذكس والكاثوليك، والاختلاف على تطوير التقليد ذاته خلق بعدها الشقاق بين الكاثوليك والبروتستانت.

حريّة عالم المعرفة، في عصرنا وعولمته ووسائل اتّصاله، نرجوها أن تصير سبباً للقاء والحوار. المعرفة لا تأتي من مطالعة الذات فقط بل من قراءة الآخر أيضاً على حدِّ السّواء. تحديد الحقيقة لا يتمّ بتعريفها كما نفهمها ولكن أيضاً بتمييزها عمّا ليست هي، أي في تحديد ما هو عكسها.

حريّة المعرفة مقدّسة، لكنّها دون الحوار الدائم تقودنا إلى الشقاقات فتصير خطيئة! هذا هو سيف الحريّة القاطع ذو الحدّين. الحريّة تقدّس والحريّة تنجّس. الحريّة في الأصوليّة والخضوع للذات تقودنا إلى الشقاق وهو أعظم خطيئة. والحريّة في الانفتاح والخضوع لله تقودنا إلى الوحدة، وهي أقدس فضيلة. الوحدة مراهنة في حريّة المعرفة!

والسبب الثاني للشقاق، الذي لا يقلّ أهميّة عن سابقه، هو نقص المحبّة، المحبّة هي أصعب فضيلة في الممارسة وأسهلها للوقوع في الرّياء حين نقلبها إلى مجرد شعارات للتبرير دون أن تحمل واقع الممارسة.

والإنسان حرٌّ بالمطلق في تحديد حركات قلبه! يستطيع أن يحبّ الآخر أو أن يحبّ ذاته. يستطيع أن يعبد (يحبّ) الآخرَ كما وأصنام ذاته. إنّها مسألة في الخيار!

نقص المحبّة، أي محبّة الذات فوق محبّة الآخر، تولّد سوء التفاهم. نقص المحبّة عين مريضة ترى كلّ شيء بألوان خاطئة، تنظر إلى كلام أبيض فتفهمه كأنّه أسود. نقص المحبّة لا يحترم رأي الآخر ولا يريد أن يفهمه، فبمجرّد يراه مختلفاً يسمّيه خاطئاً وخطأً. نقص المحبّة لا يبادل الاحترام بالاحترام بل يفهم الاحترام ذلاً ويشرب منه شراب الإعجاب والترفّع. نقص المحبّة، حين يكون صاحبه على خطأ يجعله، يتصلّب (أصوليّاً)؛ وعندما يكون على حقّ يجعله، يترفّع (يُبعد الآخر). نقص المحبّة هو الخطيئة الكبرى، إنّه أكبر أكذوبة، لذلك هو أبعد الأمور عن الحقيقة! الرذيلة لا تجلب الوحدة. الحقيقة لا توجد إلاّ في المحبّة. فالمحبّة أمُّ الوحدة! الفضيلة والمحبّة عكس الرذيلة والكذب. هذه الأخيرة تسير بنا إلى الشقاق وتلك الأولى وحدها تحقّق بيننا الوحدة.

المحبّة تتمّ بالروح القدس- المحبّة هي ثمرة الحياة الروحيّة. لذلك نرى أن أكثر الفئات المسيحيّة تقارباً ليسوا العلمانيّين ولا اللاهوتيّين، ولا المسؤولين، لكن أوّلاً الرهبنات، ومثلهم كلّ مَن هو روحانيّ بين السابقين. لأنّه هناك في الحياة الروحيّة تتشابه الخبرات المسيحيّة، فهناك الحقيقة. أمّا في ميادين السلطة والانتماءات والمدارس... فهناك بعضٌ من كذب، لأنّه هناك يبشّر، مرّات عديدة، ليس باسم يسوع وإنّما باسم آخرين! في الحياة الروحيّة التي بالروح القدس تنمو المحبّة وتتلاشى الخصومات والشقاقات. نعم، الوحدة هي مراهنة في حريّة المحبّة!

حريّة المعرفة تحتاج للحوار الحرّ الذي يقودنا إلى وحدة الإيمان، وإلى معرفة أكمل بيسوع المسيح. وحريّة المحبّة تحتاج لحياة روحيّة عميقة تصل بنا جميعاً إلى الخبرات الروحيّة ذاتها، فلنا روح واحد ورأس واحد هو يسوع المسيح.

الحوار المنفتح والحياة الروحيّة العميقة يرفعان الجهل والخطيئة. إنّهما يوجّهان الحريّة البشريّة في المعرفة وفي المحبّة. الحوار والحياة بالروح عمودَي الحقّ وطريقنا إلى الوحدة، لأنّهما يبنيان المعرفة والمحبّة وينجحان في مراهنة الحريّة، "فنقول قولاً واحداً ولا يكون بيننا شقاقات بعد"، آمين.